دمية

محمد عبد الظاهر

منذ حوالي عامين أهداني أبي دمية في عيد ميلادي الذي لا أتذكر منه إلا أغنية أثارت انتباهي كثيرًا قد ذكر فيها اسمي مع كثير من ال "شيك شاك شوك".

تعجبت كثيرًا وغضبت أيضا.... فالأولاد لا يلعبون بالعرائس السخيفة تلك؛ يلعبون أحيانًا بالمسدسات التي تطلق الخرز الملون، قد يلعبون الكرة، أو يلعبون أحيانًا ألعابًا قتالية كتلك التي يعرضونها على التلفاز ويكتبون أسفل الشاشة "لا تجربها بالمنزل"؛ أما تلك الدمية فلم ترق لي أبدًا.... حتى أصدقائي لم يكفوا عن السخرية مني ودميتي طوال الحفل.

لكني سرعان ما تناسيتها وتركتها بالخزانة ولم أهتم، فعندي ألعاب كثيرة تغنيني عنها؛ ثم مرت الأيام والليالي ونسيتها تمامًا.

كنت جالسًا وأمي ذات ليلة نشاهد مسرحية "العيال كبرت" لكن بدون أبي الذي سافر لتوه إلى بلد غريب يدعى "أمريكا" ليعمل هناك؛ كانت تضحكني وتثيرني أكثر من أي شخص آخر.

لقد كان ذلك الرجل "رمضان السكري" يشبه أبي كثيرًا في كلامه وأفعاله إلا أنه لم يتزوج من غير أمي.... كنت دائمًا ما أسخر منه أمام أصدقائي.. (أبي لا يستطيع استخدام الحاسوب).... (أبي لديه كرش كبير).... (أبي يقول إن التلفاز مضيعة للوقت).... (أبي بخيل جدًا)... كان يشبه "رمضان السكري" في كل شيء تقريبًا حتى في صلعته.... كنت أتمنى أن يكون أبي مضحكًا مثل "تشاندلر" من مسلسل "الأصدقاء" أو وسيمًا مثل "جاك" من فيلم "تيتانيك" لكن على أي حال لا أحد يختار أباه.

فجأة وأثناء جلوسنا انقطعت المسرحية بنبأ عاجل: قال المذيع أن رجلاً يدعي "بن لادن" سرق طائرة وحطمها في برج كبير في "أمريكا"..... أين سمعت هذا الاسم من قبل..... نعم إنه المكان الذي ذهب إليه أبي.

الغريب في الأمر كان رد فعل أمي التي وقع عليها الخبر وقع الصاعقة. كانت تنظر للطائرة في التلفاز وتقول: نعم إنها هي...إنها الطائرة ذاتها.

لم أعلم ماذا كانت تقصد؛ لعلها كانت طائرة جدي وكان من المفترض أن ترثها أمي، لكني لم أُعر الأمر اهتمامًا ولم يشغل بالي مطلقًا.

بعد يوم أو اثنين زارنا الكثير من الناس... نفس الوجوه التي رأيتها في عيد ميلادي لكن تلك المرة لم يظهروا أي من أشكال الفرح.

النساء يرتدين ملابس سوداء ولا تسمع منهم إلا الولولة والبكاء..... الرجال صامتون في وقار لم أشهده منهم يوم عيد ميلادي ولا يقولون إلا "البقاء لله"، "إنا لله وإنا إليه راجعون" وجمل أخرى من هذا القبيل؛ الشخص الوحيد الذي لم ألحظه هو أبي..... تر أين هو، لمَ لم يأتِ ليشهد هذا الحفل العجيب الذي يخلو من أي من أنواع الفرح... لابد أنه يواجه الكثير من المشاكل في "أمريكا"؛ كان بودي الرقص على تلك الأغنية مرة أخرى لكن على ما يبدو أن الوقت لا يسمح إلا ببعض آيات من القرآن التي قرأها الشيخ "محمد" إمام المسجد الذي أصلي به الجمعة ويصلي به أبي كل يوم تقريبًا.

كان كل شيء تقريبًا على ما يرام حتى جاء عمي "سالم" وأخبرني بأني لن أرى أبي مجددًا.

للوهلة الأولى اعتقدت أنه سيتزوج امرأة أمريكية كما فعل "رمضان السكري"... ليتني اكتشفت أين الجواب الغرامي حتى أمنع ابي من السفر؛ لكن فات الأوان.

كلما كان أبي يوبخني أو يعاقبني على خطأ اقترفته كنت أتمنى أن يختفي ولا أراه مجددًا؛ لكن الآن ينتابني شعور بالخوف، أصبحت أشعر بالوحدة رغم

أني كنت دائمًا وحيد... لكن الآن أشعر بشعور أكثر رهبة من ذي قبل..... ليتني لم أتمنَ ذلك أبدًا..... تبًا لتلك السيدة الأمريكية التي أخذت أبي منّا.

كثيرًا ما أغلقت غرفتي لأبكي وحدي... لم أكن أحب أن يراني أحد أبكي؛ حتى عندما كان يضربني الأستاذ في الحضانة بعصاه المؤلمة كنت أنتظر لأبكي في البيت.

فجأة أصبحت حياتي مثل الكوابيس التي أراها وأنا نائم؛ حتى ألعابي كرهتها، أصبحت أكره الدخول للإنترنت..... المكان الوحيد الذي ألتقي فيه بأصدقاء أحبهم حقًا.

مع اختلاف الأيام بدأت أتحسن قليلاً، وكذلك أمي التي خرجت من المستشفي بعد خبر الطائرة بأسبوعين تقريبًا.

ذات مرة فتحت خزانتي وبالصدفة وجدت فيه تلك العروسة التي اهداني إياها أبي؛ أخذتها ونظرت لها بتمعن.

شعرت من ناحيتها شعورًا غريبًا. رأيت فيها أبي، أحسست فيها بالحب؛ فجأة أصبحت تروق لي.

أخذت أربت عليها ثم قلت لها: لعلك كنتِ خائفةً طوال ذلك الوقت في

الخزانة.... لا بأس سوف اعتني بكِ.

أصبحت أنا و "زينب" صديقين؛ أسميتها مثل "زينب" من المسرحية ذاتها؛ يبدو أن حياتي كلها أصبحت مبنية على ذلك العرض الكوميدي.... لكنها لم تكن أبدًا كوميديةً بالنسبة لي.

كانت أفضل ونيس لي في وحدتي؛ ألعب معها طوال اليوم وأحدثها عن يومي في المدرسة، كنت دائمًا ما أصطحبها في أي مكان أذهب إليه، أهتم بها وأسرح شعرها وآخذها في حضني أثناء النوم؛ كنت اعتبرها ابنتي وأعتني بها على أكمل وجه. من قبل كنت أعتقد أن ذلك الفعل لا يصلح إلا للفتيات لكني الآن أحب هذا.... أصبحت لا أطيق هذه الألعاب العنيفة أبدًا.

قالت لي سميرة جارتنا: حمادة! لقد أصبحت تتصرف مثل الفتيات.

لكني لا آبه لما تقول... أنا أحب زينب على أي حال.

لقد كانت أفضل ما صنعه لي أبي يومًا..... ليته يعود مرة أخرى.

***